تماما عن اداة الحرب الحديثة الصامتة المعقدة التي كان علينا ان تمر سنوات وامتحانات اخرى قبل ان نفهمها . وتأتي الاخبار الاولى تزف الانتصارات . ولكن في وسط انباء الانتصارات يجد المدقق تصويرا للقرية الكيبوتز او المستعمرة الاسرائيلية يستوقف النظر ، نمط اجتماعي وانتاجي وحربي يختلف عن معنى القرية في قاموسنا . وبصرف النظر عن تسلسل احداث الحرب فالانباء لم تلبث ان اكفهرت . ثم وقعت الهزيمة وقع الصاعقة . وظهرت في الجو همسات الخيانة وغيرها من المبررات .

الاسلحة الفاسدة ، الشرك الانجليزي ، الخطة المرسومة « من فوق » لمواقع تصل اليها القوات ولا تتعداها . نغمة في مصر بالذات عن مشاكل الدخول في القضايا العربية ، حين استفرد الاسرائيليون بالجبهة المصرية . حصار الفالوجا وصمود قواتنا المحاصرة يرفع الروح المعنوية قليلا ، ويقابل العائدون من الشرك والحصار مقابلة الابطال . لكن الاسئلة الكبيرة تظل مطروحة ، محلقة في السماء ، بلا جواب .

لقد قيل انه كانت هناك اسلحة فاسدة ترتد الى صدور حامليها . ولكن المؤكد ان حرب فلسطين الاولى ارتدت بالسخط والنقمة والنقد على اوضاع البلاد العربية جميعا . كان هذا أهم أثر تركته حرب فلسطين الاولى في الضمير العربي ، ممتزجا بالشعور بالمسئولية الضميرية نحو مليون عربي خرجوا من بلادهم ولم يعودوا ، وانما نصبت لهم مخيمات على امل عودة غير واضحة معالمها ولا زمانها ولا ظروفها .

لم تنحرف الحركة الوطنية في البلاد العربية بفعل حرب فلسطين عن مسارها السابق في المطالبة باستقلال الأوطان العربية المختلفة ، ولكنها عادت مزودة بدروس جديدة ، ورؤيا جديدة . لقد عادت الحركات الوطنية — حقا — الى معاركها القطرية في سبيل التحرر والاستقلال ، ولكنها كانت تحمل في ضميرها اثرا غائرا مما جرى على تراب فلسطين .

عادت في الدرجة الاولى « اكثر عروبة » اذا جاز التعبير . صارت قضية التحرر بمعناها القومي العربي الشامل اكثر وضوحا عما كانت من قبل . ويخطر على البال هنا مصر بالذات ، حيث يمكن القول ان الروح العربية ولدت فيها ميلادا جديدا . ومن حيث ظن البعض في مصر ان الهزيمة سوف تؤكد حجة الذين عارضوا الهوية العربية لمصر ، فانها بالعكس اضعفت حجتهم ، وحولت الاصوات القليلة المنادية بعروبة مصر الى تيار قوي ، وحولت سياسة مصر العربية من مجرد « سياسة » رسمية ، فوقية ، او « لعبة سياسية » ، الى قناعة واسعة لدى المثقفين ، ثم عبر السنين ، لدى الجماهير . وفي حين ان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، اي بعد الكارثة بأربع سنوات ، بدأت من منطلق معاد لفكرة « العروبة » التي كانت متجسدة في « جامعة الدول العربية » ، فان الثورة لم تلبث ان عدلت مسارها جذريا في هذا المجال . ذلك انها تبينت ان مكمن الداء ليس في فكرة العروبة ذاتها ، ولكنه في السياسات العربية التي كانت سائدة . وان المشكلة ليست في ولاء الامة العربية لانتمائها ولكن في تفسير الحكام العرب لهذا الولاء وفي مسلكهم السياسي وطرق تعبيرهم عن العروبة . وجدت ان ما ثارت عليه في مصر متكرر في كل قطر عربي آخر . وهكذا ، حين نادى عبد الناصر بعد ذلك بعروبة مصر ، ثم وضع ذلك في دستورها ، كانت الارض مهيأة فعلا لاستقبال هذه الدعوة ، او بمعنى اصح للكشف عن هذه الحقيقة .